وفاة فاطمة الزهراء سيدة نساء أهل الجنة

إعداد: رياض عواد

شهر رمضان المبارك هو شهر الفتوحات والأحداث الجسام في تاريخنا الإسلامي.. وهذه الحلقات نحاول خلالها إبراز أهم الأحداث التي وقعت في هذا الشهر الكريم تلك الأحداث كثيرة ومتنوعة، ما بين معارك إسلامية فاصلة وفتوحات وأحداث إسلامية مهمة تتعلق بمولد أو وفاة أعلام المسلمين، فنعيش خلال الحلقات القادمة مع بعض تلك الأحداث والفتوحات لنقتفي آثارها ونتلمس خطاها.

تُوفِّيت فاطمة الزهراء رضي الله عنَها ليلة الثلاثاء في الثالث من شهر رمضان من العام الحادي عشر للهجرة، وكان عمرها حينئذ تسعاً وعشرين سنةً، وكانَت وفاة فاطمة الزهراء بعد وفاة النبيّ –عليه الصلاة والسلام– بستّة أشهر، وبالتحديد في عهد أبي بكرٍ الصدّيق –رضي الله عنه–، فقد صحّ في الحديث عن أبي بكر –رضي الله عنه–: (وعَاشَتْ بَعْدَ رَسول اللّه صَلّى اللهُ عليه وسلّمَ ستّةَ أَشْهُرَ)، وقد جاءت روايات أخرى بهذا الشأن، بعضها أقلّ من ستّة أشهر، وبعضها أكثر، لكنّ جميع الأخبار تتفقُ على أنّ السيدة فاطمة كانت أولّ أهل بيته –عليه السلام– لحوقاً به إلى الدار الآخرة، وممّا يدل على ذلك ما ثبت في الصحيح عن عائشة –رضي الله عنها–، أنّ فاطمة حدّثتها أنّ رسول الله –صلّى الله عليه وسلّم– أَسَرّ إلَيها، فقال: (إنّ جِبْرِيلَ كانَ يُعَارِضُني القُرْآنَ كُلّ سَنَة مَرّةً، وإنّه عَارَضَني العَامَ مَرّتَيْنِ).

فاطمة بنْت محمد بنَ عبد الله «فاطمة الزهراء» هي بنت الرسول من أول زوجاته أم المؤمنين خديجة بنت خويلد، وزوجة علي بن أبي طالب. ولدت يوم الجمعة 20 جمادى الآخرة في السنة الخامسة بعد البعثة النبوية بعد حادثة الإسراء والمعراج بثلاث سنوات

تُعَدّ فاطمة الزهراء من ضمن النساء العربيات اللاتي عرفن بالبلاغة والفصاحة حتى أن ابن طيفور المتوفى 280 هجرية أورد خطبها في كتابه بلاغات النساء ناقلاً عن أبي الحسين زيد بن علي بن الحسين قوله: رأيت مشايخ آل أبي طالب يروونه عن آبائهم ويعلمونه أبناءهم.

بداية حياتها

نسبها

•هي: فاطمة بنت محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر وهو قريش بن كنانة،بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

• أمها: خديجة بنت خُوَيْلد بن أسَدَ بن عبد العُزّى بن قُصَيّ بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

• إخوتها: لفاطمة ثلاثة إخوة وثلاث أخوات، كلهم أشقاء من أبيها النبي محمد وأمها خديجة بنت خويلد إلا أخيها إبراهيم بن محمد فهو من سريّة النبي مارية القبطية، وإخوتَها هم: القاسم بن محمد وزينب بنت محمد ورقية بنت محمد وأم كلثوم بنت محمد وعبد الله بن محمد وإبراهيم بن محمد. وفاطمة هي أصغر بنات النبي.

ولادتها

هناك أختلاف في تاريخ ولادتها، يذهب أهل السنة والجماعة قبل البعثة النبوية بخمس سنين وقريش تبني البيت يوم حكم والدها النبي محمد في النزاع حول الحجر الأسود في مكانه.

بينما ذهب ابن عبد البر والحاكم إلى أنها ولدت وعمر النبي إحدى وأربعون عاماً أي بعد سنة من البعثة النبوية.

وذهب أكثر الشيعة إلى أن فاطمة الزهراء ولدَتْ بعد البعثة النبوية بخمسة أعوام في أول شهر جمادى،

لكن الشيخ المفيد في حدائق الرياض وقد نقل عنه الكفعمي في مصباح المتهجد والعدد القوية يرى أنها ولدت بعد عامين من البعثة. وانفرد ابن أبي الثلج البغدادي في تاريخ الأئمة برأي وافق فيه علماء أهل السُنّة في أنها ولدَتْ قبل البعثة بخمس سنواتَ وقريش تبني البيت.

فبينما يكاد علماء الشيعة يجمعون على أن عمرها عند وفاتها كان ثمانية عشر عاماً ومنهم: المجلسي والطبرسي والكليني والإربلي والنيسابوري والشيخ الصدوق وابن شهر آشوب، يرى أغلب أهل السُنّة ومنهم ابن عبد البر أن عمرها كان عند الوفاة تسعة وعشرون عاماً ، غير أن هناك اتفاقاً على أن فاطمة كانت أصغر بنات رسول الإسلام محمد بن عبد الله.

وعلى جانب آخر تقول بعض الروايات الشيعية أن خديجة بنت خويلد ما كانت تشعر بثقل حملها، وكانت تكلّم فاطمة وهي جنين لتؤنسها وتسلّيها

نشأتها

شَهِدَتْ فاطمة منذ طفولتها أحداثاً جساماً كثيرةً، فقد كان النبي يعاني من اضطهاد قريش وكانت فاطمة تُعينهُ على ذلك الاضطهاد وتسانَده وتؤازره، كما كان يعاني من أذى عَمه أبي لهب وامرأته أم جميل من إلقاء القاذورات أمام بيته فكانت فاطمة تتولى أمور التنظيف والتطهير.

وكان من أشد ما قَاسَته من آلالام في بداية الدعوة ذلك الحصار الشديد الذي حُوصَرْ فيه المسلمون مع بني هاشم في شعب أبي طالب، وأقاموا على ذلك ثلاثة سنوات، فلم يكن المشركون يتركون طعاماً يدخل مكة ولا بيعاً إلا واشتروه، حتى أصاب التّعب بني هاشم واضطروا إلى أكل الأوراق والجلود، وكان لا يصل إليهم شيئاً إلا مستخفياً، ومن كان يريد أن يصل قريباً لهُ من قريش كان يصله سراً.

وقد أثر الحصار والجوع على صحة فاطمة، ولكنّه زادها إيماناً ونضجاً. وما كادت فاطمة الصغيرة تخرج من محنة الحصار حتى فوجئت بوفاة أمها خديجة فامتلأت نفسها حزناً وألماً، ووَجَدَتْ نفسها أمام مسؤوليات ضخمة نحو أبيها مُحَمّد بن عَبد الله، وهو يمرّ بظروف قَاسية خاصة بعد وفاة زوجته وعمّه أبي طالب. فما كان منها إلا أن ضاعفت الجهد وتحملت الأحداث بصبر، ووقفت إلى جانب أبيها الرسول مُحَمّد بن عبد الله لتقدم له العوض عن أمَها وزوجته ولذلك كانت تُكنّى بـأم أبيها.

هجرتها

• هَاجَرَتْ الزهراء إلى المدينة المنورة وهيَ في الثامنة عشرة من عمرها وكَانَتْ مَعَها أخْتَها أم كلثوم وأُم المؤمنين سودة بنت زمعة بصحبة زيد بن حارثة وهاجر معهم: أُم المؤمنين عائشة وأمها أم رومان بصحْبَة عبد الله بن أبي بكر، وكان ذلك في السنة الأولى من الهجرة.

زواجها

رسم تُركي عُثماني للرسول مُحمّد وهو يُزوّج ابنته فاطمة بابن عمّه عليّ، وقد غُطي وجه فاطمة ومُحمّد باللون الأبيض احترامًا لهما.

في شهر صفر من السنة الثانية من الهجرة زوج النبي ابنته فاطمة لعلي بن أبي طالب، ولم يتزوج بأخرى في حياتها، وقال ابن عبد البر: دخل بها بعد معركة أحد. وقد رُوي أن تزويج فاطمة من علي كان بأمر من الله، حيث توالى الصحابة على محمد لخطبتها إلا أنه ردهم جميعا حتى أتى الأمر بتزويج فاطمة من علي، فأصدقها علي درعه الحطمية ويقال أنه باع بعيرا له وأصدقها ثمنه الذي بلغ 480 درهما على أغلب الأقوال. وأنجب منها الحسن والحسين في السنتين الثالثة والرابعة من الهجرة على التوالي، كما أنجب زينب وأم كلثوم والمحسن، والأخير حوله خلاف تاريخي حيث يروى أنه قتل وهو جنين يوم حرق الدار، وفي روايات أخرى أنه ولد ومات في حياة النبي، في حين ينكر بعض السنة وجوده من الأساس. في أكثر من مناسبة صرح محمد أن علي وفاطمة والحسن والحسين هم أهل بيته مثلما في حديث المباهلة وحديث الكساء،[27] ويروى أنه كان يمر بدار علي لإيقاظهم لآداء صلاة الفجر ويتلو آية التطهير. وقد روى الليث بن سعد: «تزوج علي فاطمة فولت له حسناً، وحسيناً، ومحسناً، وزينب، وأم كلثوم، ورقية، فماتت صغيرة ولم تبلغ» وينقل أبو إسحاق الإسفراييني ويضيف أن علي وفاطمة أنجبتا سكينة

سَبَبْ تَسْمية الرسول لها بفاطمة

تعددت أسماء فاطمة الزهراء وألقابها. أما تسمية «فاطمة» فقد قال عنها الخطيب البغدادي وابن حجر الهيتمي في الصواعق المحرقة: «أن الله سمّاها فاطمة لأنه فطمها ومحبيها عن النار»، وفي سنن الأقوال والأفعال روى الديلمي عن أبي هريرة: «إنما سميت فاطمة لأن الله فطمها ومحبيها عن النار». بينما قال محب الدين الطبري في ذخائر العقبى: «إن الله فطمها وولدها عن النار».

من ألقابها

• الزهراء: هناك أقوال بأنها كانت بيضاء اللون مشربة بحمرة زهرية. إذ كانت العرب تسمي الأبيض المشرب بالحمرة بالأزهر ومؤنثه الزهراء، وهناك من يقول أن النبي محمد هو من سماها بالزهراء لأنها كانت تزهر لأهل السماء كما تزهر النجوم لأهل الأرض، وذلك لزهدها وورعها واجتهادها في العبادة، وفي ذلك ينقل بعض المحدثين وأصحاب السير عنها عبادات وأدعيةً وأوراداً خاصة انفردتْ بها، مثل: تسبيح الزهراء، ودعاء الزهراء وصلاة الزهراء وغير ذلك.

• البتول: تعددت الأقوال حول هذة التسمية، منها:

o قول النووي في شرح مسلم: التبتل هو الانقطاع عن النساء وترك النكاح انقطاعاً إلى عبادة الله وأصل التبتل القطع ومنه مريم البتول وفاطمة البتول لانقطاعهما عن نساء زمانهما دينا وفضلاً ورغبة في الآخرة.

o قول ابن حجر العسقلاني في الفتح: وقيل لفاطمة البتول إما لانقطاعها عن الأزواج غير علي أو لانقطاعها عن نظرائها في الحسن والشرف.

o قيل: لأنها تبتلت عن دماء النساء.

• الحوراء الإنسية: ويستشهدون برواية عن رسول الإسلام أوردها الطبراني في المعجم الكبير: (فاطمة حوراء إنسيّة، فكلّما اشتقتُ إلى رائحة الجنّة شممتُ رائحة ابنتي فاطمة. وجاء الحديث برواية عائشة فهو: «إنّي لما أُسري بي إلى السماء أدخلني جبريلُ الجنّة فناولني منها تفّاحة، فأكلتُها فصارت نُطفةً في صُلبي، فلمّا نزلتُ واقعتُ خديجة، ففاطمة من تلك النطفة، وهي حوراء إنسيّة، كلمّا اشتقتُ إلى الجنّة قبّلتُها.» أما الحديث الثاني رواه الطبراني وفيه أبو قتادة الحراني وثقه أحمد وقال: كان يتحرى الصدق، وأنكر على من نسبه إلى الكذب، وضعفه البخاري وغيره، وقال بعضهم: متروك، وفيه من لم أعرفه أيضاً، وقد ذكر هذا الحديث في ترجمته في الميزان وقال فيه ابن حجر : هذا مستحيل، فإن فاطمة ولدت قبل الإسراء بلا خلاف.

أم أبيها هي كنية من كنى فاطمة الزهراء بنت نبي الإسلام محمد، كنّى النبي بها ابنته فاطمة، ويناديها بأم أبيها، حيث قال:»فاطمة أم أبيها». وكان النبي يقول: مرحباً بأُم أبيها.

سبب تكنية فاطمة بأم أبيها

ذكر أكثر من سبب وراء تكنية فاطمة الزهراء بهذه الكنية. إن هذه الكنية تحمل دلالات في نفس الوقت لأنه حسب ما جاء في الآيات الأولى من سورة النجم

« وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلّا وَحْيٌ يُوحَى »

عندما يكنّي النبي بنته بأم أبيها، يقصد من ذلك، الإشارة إلى نقاط هامّة يذكر العلماء بعض هذه النقاط كما في الآتي:

رعايتها المتميزة لأبيها

أن الزهراء منذ طفولتها، كانت ترعى أباها رعاية متميزة كرعاية الأم لولدها، وكانت تضمّد جراح أبيها بعد الغزوات أو عند تعرض الكفار للنبي حيث كانوا يصيبونه بجروح. فكانت له بمثابة الأم الرحيمة والعطوفة التي تغدق عليه حنانها ومحبتها، بل كانت له أكثر حناناً وعطفاً وشفقة من الأم.

تقدير النبي لها

لعله أراد بتكنيته لها بهذه الكنية أن يظهر تقديره وحبه وحنانه تجاهها بإظهار المحبة لها على مستوى محبته لأمه آمنة بنت وهب ليعرف الجميع بأن ابنته الزهراء هي موضع دلاله وتقديره وحبه وحنانه على هذا المستوى الرفيع.

إظهار النبيّ المحبة لفاطمة

ونقل التبريزي الأنصاري: إنّ النكتة في هذه التكنية إنما هي محض إظهار المحبة، فإن الإنسان إذا أحبّ ولده أو غيره وأراد أن يظهر في حقّه غاية المحبّة قال: «يا أمّاه» في خطاب المؤنّث، ويا «أباه» في خطاب المذكّر، تنزيلاً لهما بمنزلة الأُمّ والأب في المحبّة والحرمة على ما هو معروف في العرف والعادة.

الأحاديث حول الكنية

هناك كثير من الأحاديث عن طريق أهل السُنّة والجماعة وكذلك عند الشيعة والتي عَبَرَتْ عن هذه الكنية وخصصتها بفاطمة الزهراء عن قول الرسول محمد، منها:

• منهم الحافظ أبو القاسم سليمان بن احمد الطبرانيّ المتوفى سنة 360 في «المعجم الكبير» (ج 22 ص 397 ط مطبعة الامة– بغداد) قال: حدثنا الحسين بن فهم، ثنا مصعب بن عبد اللّه الزبيري قال: كنية فاطمة أم أبيها. وكذلك حدثنا محمد بن علي المديني فستقه قال: وكانت فاطمة بنت رسول اللّه تكنى أم أبيها.

• وذكر عدة من الكتب التاريخية رواية عن أبي عبد الله جعفر الصادق الإمام السادس عند الشيعة عن أبيه أنه قال: «أنّ فاطمة كانت تُكنى أُمّ أبيها».وروي ذلك عن مصعب بن عبد الله الزبيري، ومحمد بن علي المديني وابن الأثير.

• وذكر أبو الفرج الأصفهاني في كتابه الأغاني: «وكانت أول هاشمية تزوّجها هاشمي، وهي أم سائر ولد أبي طالب. وأم الحسين بن علي بن أبي طالب: فاطمة بنت رسول الله. وأمها خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزّى بن قصيّ. وكانت خديجة تكنى أم هند، وكانت فاطمة تكنى أم أبيها.

أبناؤها

انحصر نسل النبي محمد بابنته فاطمة. فهي بنت محمد الوحيدة من بين أولاده التي كانت لها ذرية. فهم:

أولادها

• الحسن: سبط الرسول محمد وحفيده وريحانته وسيد شباب أهل الجنة حسب عقيدة المسلمين، كنيته أبو محمد، والإمام الثاني عند الشيعة، ورابع أصحاب الكساء.

• الحسين: سبط الرسول محمد نبي الإسلام وحفيده ويلقب بسيد شباب أهل الجنة، كنيته أبو عبد الله، والإمام الثالث عند الشيعة وخامس أصحاب الكساء.

• المحسن بن علي :سبط نبي الإسلام محمد وحفيده، يقر بوجوده السنة والشيعة معاً. وحسب الروايات السنية أنه مات صغيراً في حياة النبي محمد.

بناتها

• زينب بنت علي.
• أم كلثوم بنت علي.

مكانتها

لفاطمة بنت محمد مكانة عظيمة عند المسلمين بشتى طوائفهم؛ فتجمع على أن لها شأن عند الله يفوق كل نساء العالم، وأنها سيدة نساء العالمين وفقاً للمنظور الإسلامي ولا يشاركها تلك المكانة سوى القليل من النساء مثل مريم بنت عمران على سبيل المثال مع أنهم يؤمنون أيضا أن مريم من أفضل نساء العالمين وأتقاهن،وتستمد فاطمة مكانتها عند الشيعة من أنها أم الأئمة المعصومين لديهم، ولديهم الكثير من الروايات التي تبين مكانتها وأفضليتها عن كل النساء،

قبر فاطمة الزهراء رضي الله عنها

فاطمة الزهراء